

قصة قصيرة

المغموص



جمال الدين الخضيرى

لم يعد يحتمل كل تلك الآلام التي تعترض معدته وتقطع أحشاءه. تكوم على نفسه أكثر من ذي قبل وراح يترنح في مشيته. صمم أن يقتحم الضيقة الزراعية ويطرق باب الفيلا، فليقع ما يقع..

تحلقت حوله مجموعة من الكلاب عاوية تريد الفتك به. صدهم المرأة الشقراء البدينة من الشرفة التي تطل منها، ووجهت كلامها للغريب بنبرة مريبة:

- ماذا تريد؟

رنا إليها وهو لا يزال محدودبها بوجه فاقع اللون. أشار إلى بطنه علامة إحساسه بالآلم. تسمرت المرأة في مكانها مدة خيلت إليه أنها سرمدية، محدقة فيه تتأمل انحنائه وتوجعته، وتسلفه بعينها، وتتملاه كما يتملى فنان جسدا مسجى أمامه يتوخى رسمه.

كان في أشد الأوقات ضيقا وعتنا. ضيق لم يعرفه حتى أثناء مصارعة للموج مدة يومين على ظهر قارب صغير يتلاعب به موج البحر. وجد نفسه متلفعا بحناديس ليل يركب بحرا لا أمان له، مخلفا وراءه الآلم وأمله. كان لابد له أن يركبه، لم يتبق له خيار آخر غيره بعد أن هدته الانتكاسات والارتكاسات وتاكلت مؤخرته على كراسي المقاهي. فما أقسى أن تلتفك الأرصفة، وتكون لك مدارج ومعارج في البطالة والصعلة. أخيرا عقد العزم على المخاطرة، وفي المخاطرة كما يقول النفري جزء من النجاة..

تجمع ذلك اللغيف البشري على الشاطئ ليلا. ملامحهم رغم اختلاف ألوانهم تسكنها متاريس الحيرة، وعيونهم يطل منها ألم وشغف الوصول إلى الضفة الأخرى. تكدسوا داخل القارب. التصقت الأكتاف بالأكتاف والتفت الساق بالساق. زاد هدير المحرك وهو يخمر العباب من قوة الفناء الذي أحسوا به. للهدير وقع عجب في أذنيه، لقد ذكره بطاحونة أمه البديوية المغروسة في إحدى غرف الدار، والتي كانت تلقم فتحتها بالشعير فيتناهي إليه الأزيز ذبا مستساغا مضمخا بتلك الراحة البدائية. ذلك زمان مضى وانقضى، وها هو الآن بين قطبي رحي مخالته وبين ضفتين قاسيتين قاصيتين، ومما زاد في انقباضه ثقل هذه الأجساد التي لا يستطيع عنها فككا.

نأى القارب ونات معه أحلامه وخيمت عليه سوانح التيه والاضمحلال. وارتد به الزمن إلى مكابذاته الأولى؛ وهو الذي عرف اليتيم مكرًا وشمر على ساعديه ليعيل أمه وإخوانه، ومشى في موكب الكادحين وراكم تجارب مريرة رغم بقاعة سنه. سدر به خياله ووقف عند محطات بعينها. انتابته ضحكة كريمة وهو يستحضر الملاك صاحب حقول اللوز الشاسعة في قريته، الجالس تحت عريشة فيحاء وهو يراقب المشتغلين عنده في جني الثمار، زاجرا إياهم وحاسبا عليهم أنفاسهم ونأمتهم. من أجل دريهمات معدودات يتحملون نهارا جهنميا يمتد من طلوع الشمس إلى مغيبها.

وقبل مغادرتهم العمل ينتظمون في طابور، ويطلق في تفتيشهم واحدا واحدا مخافة أن يكون بعضهم قد أخفى لوزة أو لوزتين في جيوبه. تنأى إليه الصوت مزجرا:

- ما هذا الذي في جيبيك يا وغد؟

تحفص جيبيه في ذهول، وإذا به يجد فيه لوزتين. قال بصوت كسير:

- سقطنا سهوا.. وهل أنا مجبر على تمشيط جيوبى ومسامى قيل أن...
- أرني ففكك، لا أريد أن أشم نتانتك بعد اليوم.
- عرق جيبي أولاً...
- عرق جيبيك لا يساوي حسافة واحدة..
- وحق الحق إن لم تعطنى أجري لأحوال من مزرعتك إلى محرقة...

استيقظ على مهمة الركاب واضطراب مفاجئ لحركة البحر وعلو الموج. مد بصره فيما حوله، فلم ير إلا ظلاما مكدسا ثقيل السواد، ولاحظ له من بعيد أطياف مترافضة عبارة عن فوانيس كابية. خمن أنها قد تكون أضواء فسارات مرفا ما، وبث هذا بصيص أمل في نفسه لأن اليابسة ليست بعيدة. تسرب إليه بعض البلب غازيا جسمه، تحسس أطرافه وظهره، ولاحظ أن ثوبه ملتصق

عليه. ثمة مياه إذا تشاركهم فلكهم، وردد في قرارة نفسه كنوع من العزاء: من يخوض بحرا لا يخشى البلب. لأول مرة جرب عن حق ما معنى أن يكون ظهره ميلا وما معنى هذه العبارة المسكوكة " أصحاب الظهور المبللة" التي تطلق على أمثاله. والأكيد أن مبتكري هذه العبارة فاتهم أن يعرفوا أن الناس في بلاده يولدون وهم يحملون تراثا ثقيلًا من البلب؛ بلل الدموع السواجم، وبلل عرق غير مؤدى عنه، وبلل دماء تراق...

بدأ البحر يمور من تحتهم بحدة كبيرة. القارب لا يستقر على حال، يميل ذات اليمين وذات الشمال. الأجساد تتراطم، تلتحم وتنفصل، الريح عاصفة عاتية لا تحبل إلا بصنوها. أدرك الكل أنها النهاية وأن ليس لهم حظ في نجاة. لم تنفع توسلات القائد كي يتمسكوا جيدا بجوانب القارب، وعدم التحرك. اختلطت تنبهاته بتضرعات الركاب وكانهم الماء يسبح من كل جنب كأنه الطوفان. سكت هدير المحرك ليبدأ هدير آخر أكثر إيلا. الأجساد تطفو على الماء وتغوص. تنز من البحر بحات الصرخات والاستغاثات وسفوفيات الألم الممض. غاص من غاص وبقي وحيدا يصارع ما لا يصارع. كان

كمن يسقط من حافة جرف ليرتفع ويعلو من جديد. أحس أن كل كوارث الكون توحدت في أقنوم واحد هو هذا البحر اللجي.

مكدودا لفظته الأمواج إلى البر مثل جذع شجرة. ظل لفترة طويلة. وهو شبه عار- ملتصقا بأديم الأرض غير مصدق أنه يتنفس ملء خياشمه. انسل بصعوبة نحو الرمال قاصدا تلة، ثم ما فتى أن انهار كلياً وغاب عما يحيط به. ما أقسى أن يرمى بك في طريق بدون معالم، وأن تفقد زاد رحلتك، وتعيش عراك الرغبة والغربة. لقد اعتاص حاله بشكل كبير. سرعان ما وجد نفسه في أوضاع طبيعة شحيحة، يستوي فيها الخلاء في اتساع وعمق مثيرين. بحث عما يسد به رمقه فلم يجد شسينا. كان تحت رحمة شمس لافحة، وظمأ سليل، وجوع فتاك لمدة ثلاثة أيام. شعر أكثر من أي وقت مضى بالضيق ونفاذ الحيلة. ألقى نفسه بين أشدق واد كجوف العير يقطعه،

ذي أحجار مسننة، مليء بأشواك الطلح، يردد أغنية أمازغية علقت في ذاكرته منذ صباه، طالما غناها حين كان يرعى الغنم في سهوب قريته. ومحاولة منه لإسماص صوته لأي كان وهو الذي لم يكلم الناس ثلاث ليال سويًا أطلق عقيرته بالغاناء:

- "رباه، من ذا باستطاعته وحيدا أن يجتاز وادي الحجر" فعلى عكس الأغنية لا أحد يتطوع هنا أن يجتاز معه الوادي، وحده صدها يرتد إليه موجعا مقطوعا. أمسك عن الغناء وقال بصوت مبجوح:

- إنني محتاج إلى من يمدني بلقمة خبز أو جرعة ماء، ولكن هل من زرع في واد غير ذي زرع ولا ضرع؟

توغل أكثر في الخلاء ما وسعته قوته. جر جر قدميه بعياء، وخيم عليه صمت ثقيل، فلا حسييس ولا أنيس إلا ديبب خطواته. ففزت بعض الجنادب على مقربة منه، حاول تعقبها، لكنه لم يقو على ذلك. شعر بدونيته أمام هذه الحشرات، وقال بمرارة:

- جندي يتعقب جنديا.

تمنى لو كان يعلم منطق الطير أو الجنادب لسألها عن مضان الثمار أو الماء.

لم تكد الشمس تأتي إلى مآبها حتى لاحظ له بعض النباتات الخضراء. جذ السير نحوها فلما بلغها وجدها عبارة عن صفوف متناثرة من نبات الصبار نمت بشكل عشوائي ومتوحش في هذه الأضواء، لكنها كانت حبلجى بالثمار. اقتطف منها أعدادا كبيرة دون أن يتكلف عناء نزع الشوك عنها، وطفق يلتهمها بجوع كلبى، فكانت حلاوتها وطرأوتها عاملا مغريا جعله يصيب منها كميات متزايدة أوصلته إلى حدود التخمة.

لم يبت هذه الليلة على الطوى، لكن لا خيار له غير هذه الثمار. إنها الهبة الوحيدة التي جادت بها الطبيعة لحد الآن، ومن ثم فهي الوجبة المتوافرة لديه، بها يصبح ويمسى. والحقيقة أنه مع مرور الوقت أصبحت نعمة وكابوسا مزعجا، إذ سرعان ما تكلس ما ابتلعه في أمعائه وسبب له كل تلك الآلام الفظيعة.

هو يعلم ذلك جيدا، وكان يتوقع المطب الذي ستلقفه فيه. فللهذه الثمرة تاريخ وحكايات في قريته. كيف لا، وقد سبق له أن عانى من فظاعتها وكان من ضحاياها. تذكر كيف ابتلعها على الريق ذات صباح باكر، وأصيب بعد ذلك بامسك حاد، وحرنت أمعاؤه عن لفظ ما ترسب داخلها. فمزال صوت جدته تمنى به أذناه وهي تقول:

- ناولوني مغزلا وزيت زيتون.

لتبدأ الجدة عملية الحفر والتقيب. صحيح أنه كان في وضع كارينكاتوري؛ فرأسه أسفل ورجلاه مفروقتان نحو الأعلى،



وأمسك به أكثر من شخص، إلا أنه أحس بين يديها أنه في أحسن مشرحة طبية، وبدون تخدير، وبمغزل رقيق وفعال أجدى من أي مبيض جراح مهما كان حادقا، لنتهمر حمم الخلاص كالشلال لا تلوي على شيء.

الهناء غير الهناك.. ماذا عساه يفعل في هذه البوتقة التي لا تنبت إلا فقرا وفقرا، فأهوال البحر التي عرفها، والجوع الذي استبد به كأنه أرحم بكثير مما اعتراه الآن. لقد بدت له لوهلة أن هذه الثمرة لعنة سلطت عليه أو شكل آخر من التفاحة المحرمة التي هوت بالإنسان إلى جحيم الأرض. فها هي تهوي به مرة ثانية إلى غياهب الألم، وحيث الغواية هذه المرة غير معروف مصدرها.

- وهل كان لي خيار غيرها؟ تأوه بياأس. في الوقت ذاته قال مؤنبا نفسه:

- لكن كان لي خيار البقاء في أعطان قريتي. ها هو ذا يستمر في المسير منتقلا من ضنك إلى ضنك أشد. جذبه أزيز بعض الطواحين الهوائية تعبت بها رياح خفيفة. ارتسمت على وجهه علامات الحبور لأن الطواحين دليل حياة، ووراءها أناس وتجمعات بشرية. قد يكون دون كيشوت من من هنا أيضا في إحدى مغامراته، لكن شستان ما بينهما، فهو لم تطأ قدماه هذه الأرض توقا إلى الفروسية، فأحلامه لا تتجاوز حدود بطنه، وظل حبيس حاجيات هذا البطن الذي جنى عليه وقاده حافيا حاسرا إلى حدود ضيقة زراعية محاطة بكلاب شرسة يستجدي خلاصا، يحده أمل واحد فقط هو التخلص مما استقر في جوفه.

كررت المرأة البدينة سؤالها بصوت أقوى هذه المرة:

- ماذا تريد؟

حاول أن يشرح وضعيته أكثر فلم يستطع، فكان أن نابت عنه حركات توجعه، وناب عنه ألمه البادي على محيا الشاحب عن مدار الأمر والغاية التي يتوخى قولها وإبصاليها إلى مخاطبته، وفهمت منه الذي لم يقله، وكأنها تمرست بمثل هذه الحالات، أو أن أناسا قبله مروا من هنا واعتراه ما اعتراه.

بعد هنيهة زودته المرأة بحبة دواء وطلبت منه أن ينصرف ويتناولها بعيدا. بدا كالمأفون أو كالبعير الأجرى منبوا موبوعا. أخذ يتلاعب بالحبة بين يديه، ثم سرعان ما ألقى بها دفعة واحدة وشعر بها تتدرج داخله كما تتدرج صخرة نحو قعر بئر.

أخيرا تنفس الصعداء وقفزت الحمم كالكرات المطاطية. سكن وسكت كأنه لم يتأوه من قبل. تشربت أسماه له نتائته، وانتشرت في الجو رائحة ثقيلة لا تحتمل، ولأول مرة يكتشف بللا آخر لم يضعه في الحساب. بلل يشي بتحركاته، بحيث خلف وراءه خطا طويلا من فقراته. خمن أنه من السهل العثور عليه وتعقب آثاره مادام أنه يترك دليلا على ذلك وأي دليل!!

كان مضطرا أن يرجع إلى البحر من جديد حتى يظهر جسده من أوضاره وأدراؤه فالبهر هو المبتدى والمنتهى. وفي طريق العودة التقاه عنصران من عناصر الشرطة، وما أن اقتربا منه حتى ازورا عنه ازورا وهما يبصقان أرضا ويمسكان بأنفيهما.

انتابته ضحكة هستيرية غازية أشبه بالبكاء اهتزت لها كل أعطافه وهو يقول:

- "ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه..."

مراكب الأمس

عبد الهادي فنجان الساعدي



أيتها المراكب المعبأة
بالجنث والراحلين
أيتها المراكب..
يا ذات الصواري السود
والأشعة الممزقة..
ها هي المراكب قادمة..
مراكب القتلة والسفاحين
ها هي الحراب قادمة..
حراب الرغبة السادية
بالقتل والإسقاط
أيتها المراكب..
بعيدا.. بعيدا.. حيث الغابات
والشمس تشرق دون
بكاء..
بعيدا.. بعيدا.. حيث رائحة
الزهر تعبق..
في كل مكان..
حيث يموت الإنسان.. ميتة
واحدة..
أو يخلد إلى الأبد..
أه يا مراكب الدم..
أه يا مراكب السادية..
أشعر بالحزن..
أشعر بأبدية الكتابة.. في هذا
الشرق الأخرق..
أشعر بديبب الموت..
هذا دم من؟
هذا دم من راح ليجلب خبزاً
للأطفال..
ولم يرجع..
فليختر كل منكم ميتته..
ويودع أهل الدار..
ويلتقي بساب الدار.. فما من
عودة..
ها هو الوحش قادم..
وأنا اعزل.. إلا من
كلماتي..
ها هو الوحش قادم..
بمراكب الدم.. والوحول
أبها الأمس القريب..
أبها الغيبي.. لمن أسلمت
زمامك..
أبها الأمس القريب.. أبها
الأخرق..
ها هي المراكب المبشرة
بالفرح..
والحناء بالأمس..
تتلون بالدم.. والوحول
اليوم..
بحار.. بحار.. من الشكوى
والدموع والدم..
بحار.. بحار.. من
المشردين..
والشرايين المقطوعة
والفرح الزائف في كل
مكان..
أيتها المراكب المعبأة بالجنث
والراحلين..
أبها الذاهب دون عودة
أبها القادم دون شرف..
دون ذاكرة..
أبها الصحرَاء العاهر..
يا بوابات الفرح الزائف..
يا بوابات الحزن الأبدية..
يا بوابات القتلة
أيتها الزنانات..
هذا دم من؟..
هذا..
دم
لكن لا شيء كهذا القتل
الأخرق..
لكن لا شيء كهذا الموت
التافه..